التناص القرآني في الشعر الأندلسي
ابن زيدون نموذجاً

قبل التعرض للتناص ومعرفة مدى صحة تطبيق هذه التقنية النصية على الأدب العربي ، ينبغي التطرق إلى جذور هذا المصطلح الذي انبثق من دراسات سابقة تعود إلى بعض أقطاب الشكلانيين الروس .

فقد أشار (**شكلوفسكي)** إلى " أن العمل الفني يدرك في علاقته بالأعمال الأخرى ، بالاستناد إلى الترابطات التي تقيمها فيما بينها . وليس النص المعارض وحده الذي يبدع في توازٍ وتقابل مع نموذج معين ؛ بل إن كل عمل فني يبدع على هذا النحو "[1] .

كما أشار إلى ذلك اللغوي الروسي **(ميخائيل باختين (** ت 1975) حين تحدث في أحد كتبه عن تداخل النصوص مستخدماً مصطلح الحوارية " للدلالة على علاقة التداخل بين التعابير المختلفة "[2] .

واستفاد الغربيون من جهد **باختين** حين ترجم كتابه في تاريخ الرواية إلى الإنجليزية ، فاستفادت منه الباحثة الفرنسية البلغارية الأصل **جوليا كرستيفا** (ت 1986) ، التي أصَّلت ووضعت مصطلح التناص (Inter textuality)[3] ، فهي أول من أبرز هذا المصطلح إلى الوجود ، وأول من استخدمه في مجال التطبيق النقدي . ضمن عدة بحوث كتبتها بين سنتي 1966 ، 1967 ، وأعادت نشرها في كتابيها " سيميوطيقا " (Semiotike) ، و" نص الرواية " (Le texte du Roman ، وفي مقدمة كتاب ديستوفسكي لباختين [4].

والغرض من التناص " البحث في الأليات التي تتحكم في عمليتي الإنتاج والتلقي ... في ضوء اعتبار أن التناص سمة من سمات النصية ، وأنه إحدى الطرق التي يترابط بها النص مع النصوص السابقة عليه " [5].

كما تعددت مفاهيم هذا المصطلح وتنوعت فمنها : التناص ، والتفاعل النصي ، والبنيات النصية ، والتعالق النصي ، والمصاحبات الأدبية ، والمتناص ، والمتعاليات النصية وغيرها ... ، وإن كنا نفضل مصطلح (التناص) الذي يعبرعن تداخل النصوص وتفاعلها. والتناص أحد المعايير النصية السبعة التي وضعها **روبرت ديبوجراند ، وولفانج دريسلر** ضمن المنهج الإجرائي في نظرية علم لغة النص ، من منطلق " أن علم لغة النص لا ينغلق على نفسه في محاولته معالجة النصوص وإنما يأخذ في حسابه دائماً مكتسبات العلوم الأخرى التي تهتم بالاتصال الإنساني ... وأن يقيم حواراً متبادل النفع مع غير واحد من العلوم الوثيقة الصلة باللغة ..."[6].

ثم احتضنه أصحاب النظرية البنيوية وما جاء بعدها من نظريات نقدية كالسيميائية والتفكيكية ، وفي كتابات كريستينا ، ورولان بارت وتودروف وغيرهم من رواد الحداثة النقدية .

ويمكننا تحديد مفهوم التناص على أنه " تشكيل نص جديد من نصوص سابقة أومعاصرة ، بحيث يغدو النص المتناص خلاصة لعدد من النصوص التي تمحى الحدود بينها ، وأعيدت صياغتها بشكل جديد ، بحيث لم يبق من النصوص السابقة سوى مادتها وغاب الأصل فلا يدركه إلا ذوو الخبرة و المران"[7] . ويندرج تحت هذا المفهوم التناص الشعري الذي يتجاوز المفاهيم البلاغية والنقدية القديمة في شعرنا العربي ، كالتضمين والاقتباس ، والاحتذاء ، والتلميح ، والنقائض ، والسرقات والمعارضات وغيرها ، " وهكذا يتم الانطلاق من (النص الغائب) لإعادة كتابته ، لأنه لايمكن أن ينحصر في مدلول واحد ثابت ، وإنما يتحول إلى شبكة من المستويات المتفاعلة . وبمجرد أن يطلق الكاتب نصه الجديد ، الذي هو عبارة عن عدة نصوص سابقة ومعاصرة ، فإنه يدخل النص نفسه في عمليات تناص جديدة ، باعتبار النص الجيد قادر دائماً على العطاء المستمر لقراءات متعددة ، ومن هنا يظل النص منفصلاً عن القارئ ، ومتصلاً به في الوقت نفسه ، كما يظل فاعلاً ومنفعلاً ، ومؤثراً أو متأثراً ، وتصبح عملية (إنتاج) النص الماثل عملية تشترك فيها النصوص الغائبة ... وهكذا يتفاعل النصان : الغائب والماثل من أجل إنتاج (نص جديد) هو أيضا (تناص) مركب من نصوص عديدة متداخلة ، وهذه هي القراءة المعمقة التي تستبطن أعماق النص الماثل ، في عملية التفكيك له ، من أجل إعادة (تركيب) له ، مقترنة بنصوص غائبة عديدة ،بخلاف القراءة الأفقية التي لا يملك فيها النص الماثل من عناصر (الأدبية) ما يسمح للقارئ بالانطلاق في سماء الذكراة "[8] .

على ضوء هذا الكلام يكون التناص في الأدب عبارة عن تداخل نصوص أدبية مختارة قديمة أو حديثة شعراً أو نثراً مع نص القصيدة الأصلي بحيث تكون منسجمة وموظفة ودالة قدر الإمكان على الفكرة التي يطرحها الشاعر ، ويزيدنا تاكيداً على ذلك أن النقاد العرب القدماء قد تنهبوا إلى ظاهرة التداخلات بين النصوص وبخاصة في الخطاب الشعري ، حيث ظهرت مجموعة من المصطلحات تعالج جزئيات الظاهرة ، وهو مؤشر على تعرف العرب على ظاهرة التناص دون تحديد هذا المفهوم ، حيث ظهرت عندهم مصطلحات عديدة تقترب من معنى التناص من مثل : التلميح ، والتضمين ، والاقتباس ، والاحتذاء وغيرها [9]، هذا في الجانب البلاغي ، أما الجانب النقدي فقد عرف التناص تحت مسميات أخرى كالنقائض والسرقات الشعرية ، والمعارضات .

ولعل أكثر النقاد العرب القدامى قرباً من معرفة التناص الشعري هو حازم القرطاجني ، فقد كان على دراية بتفاعل النصوص وضرورة الإفادة من كل ما هو سابق ، مبرهناً هذا على تأثير شاعر سابق بآخر لاحق ، وأن التناص في - نظره - خاصية نوعية تميز بها الشعر دون غيره من الكلام العادي ، وضرورة لا يمكن

الاستغناء عنها ، مشيراً إلى تأثر الشعراء العرب القدامى ببعضهم البعض حيث قال : " وأنت لا تجد شاعراً مجيداً منهم إلا وقد لزم شاعراً آخر المدة الطويلة ، وتعلم منه قوانين النظم ، واستفاد عنه الدربة في أنحاء التصاريف البلاغية "[10].

كما فطن حازم القرطاجني إلى أشكال التناص الشعري ، ورأى أنها تأخذ طرائق متعددة كأن " يركب الشاعر على المعنى معنى آخر ، ومنها أن يزيد عليه زيادة حسنة ، ومنها أن ينقله إلى موضع أحقُّ به من الموضع الذي هو فيه ، ومن ذلك أن يقلبه ويسلك به ضد ما سلك الأول..."[11] ، وهو ما يتوافق مع الرؤية النقدية الحديثة لنظرية التناص التي تهدف إلى " تعزيز تجربة الشاعر ، وتوثيق دلالة محددة أو نفيها أو توكيد موقف وترسيخ معنى ، وبالاجمال إنتاج دلالة مؤازرة للنص في حالتي قبوله ورفضه بالتضمين الصريح أو بالتلميح "[12] .

ولو عدنا إلى النقد العربي القديم لوجدنا أن جذور مصطلح التناص تضرب في أعماق المورثين العربيين النقدي والبلاغي ، مع ملاحظة الفوارق في ظروف النشأة ، والغايات والأهداف التي أظهرت هذا المصطلح إلى الوجود ، ومن ثم ممارسته نظرياً وتطبيقياً ، في كلتا الثقافتين العربية والأجنبية . ولو عدنا إلى الشعر العربي ، من بداياته الأولى في العصر الجاهلي ، وحتى وقتنا الحاضر ، لوجدناه ممتلئاً بالنصوص المتناصة مع نصوص سابقة ، سواء على مستوى الشكل أو المضمون ، وكأن الشاعر العربي يعاني حرجاً إذا ما نظم من دون أن يستند موقفه إلى أصل قديم ، فلم يشأ أن يبدأ من فراغ ، وقد صرَّح بذلك الشاعر الجاهلي عنترة العبسي مؤكداً على حقيقة وجود الاجترار واعتماد الشعراء على سابقيهم ، في قوله:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

وقد دفعت تلك الظاهرة – التكرار ، والاجترار ، والاعتماد على إبداعات الآخرين – كثيراً من النقاد العرب القدامى إلى دراستها ، ومحاولة وضع الضوابط والحدود لها ، وفضل السبق لشاعر عن آخر. فتحدثوا عن (أفضل بيت) ، و(أسبق بيت) ، و(أحسن بيت) ... كما عمدوا في نهاية الأمر إلى التفريق بين عدة مصطلحات تخص هذه الظاهرة ، وهذه المصطلحات هي : الاقتباس ، التضمين ، السرقة ، المعارضة ، المناقضة أو النقيضة [13].

ولا نريد أن نخوض كثيراً في جذور التناص في النقد العربي القديم ، ففي عصرنا الحديث اتسع مفهوم التناص، وأصبح بمثابة ظاهرة نقدية جديدة وجديرة بالدراسة والاهتمام، وشاعت في الأدب الغربي ، ولاحقاً انتقل هذا الاهتمام بتقنية التناص إلى الأدب العربي مع جملة ما انتقل إلينا من ظواهر أدبية ونقدية غربية ضمن الاحتكاك الثقافي، إضافة إلى الترسبات التراثية الأصيلة .

وإذا كان التناص مصطلحاً نقدياً تسلح به النقاد العرب الأقدمون تحت تسميات عديدة مثل :السرقات الشعرية ، والتضمين ، والنحل والانتحال ، والأخذ والتأثر، فإن النقاد والدارسين الغربيين ابتعدوا عن هذا المفهوم القدحي إلى حد ما للتناص، واهتموا بالجانب الإيجابي الذي يتمثل في أصول الإبداع ومكوناته الجنينية وعلاقات التفاعل والتأثر والتأثير.

ويعد التناص كذلك من أهم المفاتيح الإجرائية لفهم الأدب المقارن ورصد عملية التثاقف والحوار بين الحضارات والثقافات الإنسانية في شتى المجالات الفكرية والفنية والأدبية ، وكذلك أداة ناجعة لمقاربة النص الأدبي واستنطاق سننه اللغوية وبنيته العميقة ، والدخول إلى أغوار النص ومعرفة دلالاته وتفاعلاته الخارجية والداخلية ، لأن النص مهما كان فهو شبكة من التفاعلات الذهنية، ونسق من المصادر المضمرة والظاهرة التي تتوارى خلف الأسطر وتتمدد في ذاكرة المتلقي عبر آليات مثل : المعرفة الخلفية وترسبات الذاكرة والخطاطات النصية والسيناريوهات التصورية والتداخل النصي وتعدد الأصوات والأسلبة والتهجين .

أشكال التناص :

تعددت أشكال التناص وتنوعت وفق رؤية النقاد العرب المحدثين[14] ، فهناك التناص الظاهر أوالصريح المباشر ، ويطلق عليه أيضاً: تناص التجلي ، والتناص المستتر ، ويطلق عليه: تناص الخفاء ، ومن أشكال التناص : التناص الديني ، ومنه التناص القرآني ، والتناص الوثائقي ، والتناص والثرات الشعبي ، والتناص والأسطورة.

التناص القرآني: أن يقتبس الأديب نصاً قرآنياً، ويذكره مباشرة، أويكون ممتداً بإيحاءاته وظله على النص الأدبي، لنلمح جزءاً من قصة قرآنية، أوعبارة قرآنية يدخلها في سياق نصه.

والتناص الوثائقي: وهو في النثر أكثر منه في الشعر كالسرد والسيرة، فيحاكي النص نصوصاً رسمية كالخطابات، والوثائق، أو أوراق أخرى كالرسائل الشخصية والإخوانية؛ لتكون نصوصهم أكثر واقعية.

التناص والتراث الشعبي: وتكون المحاكاة فيه على مستوى اللغة الشعبية، وهذا مما يؤخذ على بعض الأدباء، إضافة إلى الاستفادة، وتوظيف القص الشعبي، والحكايات القديمة، والموروث الشعبي.

أماالتناص والأسطورة : فهي تتشابه مع سابقها من ناحية الاستفادة من التراث، لكنها تختلف من ناحية أن الأسطورة غالباً ما هي موروث ؛ لكنه يوناني، أو غربي، وإن كان هناك بعض الأساطير العربية، إلا أنها قلة مقارنة بالغرب.

ومن أنواع التناص : **المباشر** أو تناص التجلي هو " اجتزاء قطعة من النص أوالنصوص السابقة ووضعها في النص الجديد بعد توطئة لها مناسبة تجعلها تتلاءم مع الموقف الاتصالي الجديد وموضوع النص . وهو الشكل البسيط الذي يتحقق بنقل التعبير كما هو . فعلى سبيل المثال يتمثل التناص المباشر في الشعر العربي من خلال البيت بأكمله أو التشطير أو التخميس ، وقد يجوز عكس البيت المضمن بأن يجعل عجزه صدراً ، أو صدره عجزاً ، وقد تحذف صدور قصيدة بكاملها وينظم لها

صدور الغرض الذي اختيره أو العكس... على ذلك فالتناص المباشر إما أن يكون تاماً أو مجزوءاً أو محوَّراً "[15] .

أما التناص **غير المباشر** أو تناص الخفاء فهو الذي يلمح من خلال النص ، ويعتمد على قدرة المتلقي في إدراكه ، أي " الذي يستنبط من النص استنباطاً ، ويرجع إلى تناص الأفكار أو المقروء الثقافي أو الذاكرة التاريخية التي تستحضر تناصها بروحها أو بمعناها لا بحرفيتها أو لغتها وتفهم من تلميحات النص وإيماءاته وشفراته وترميزاته ..."[16] ، فينضوي تحته التلميح والتلويح والإيماء، والمجاز والرمز، وهو عملية شعورية يستنتج الأديب من النص المتداخل معه أفكاراً معينة يومئ بها ويرمز إليها في نصها الجديد .

وما يهمنا هنا هو **التناص القرآني :** بحيث يقتبس الأديب نصاً قرآنياً، ويذكره مباشرة ، أو يكون ممتداً بإيحاءاته وظله على النص الأدبي ، لنلمح جزءاً من قصة قرآنية ، أو عبارة قرآنية يدخلها في سياق نصه.

وحين نتحدث عن تقنية التناص القرآني في أدبنا العربي ينبغي أن نراعي ـ كمسلمين ـ قدسية هذا الكلام المتناص منه ، " فنحن حينما نستحضر القرآن الكريم في وجداناتنا وإبداعاتنا ينبغي أن نستحضره بخصائصه وخصوصياته ، وليس بخصائص وخصوصيات غيره من النصوص، لأنه نص فوق الأجناس النصوصية ، وفوق مقاربتها... فإذا ما أخذنا بما يراه الحداثيون من أن النص شيء غير مستقل ، وغير موحد ؛ بل هو مجموعة من العلاقات مع نصوص أخرى ، نسق لغته ، ونحوه ، ومفرداته ، وبلاغته ، تجر كلها معها شظايا وأجزاء متنوعة من التاريخ، حتى إن النص ليشبه مركز توزيع ثقافي. ولذا فإنه من الصعب الركون إلى العيش ثقافياً ـ تحت مظلة التناص- مع الفوضى الكاملة التي تربط التفسير بأفق انتظار كل قاريء على حدة، ما دام القُرّاء يشكلون درجات متباينة، وأشكالاً مختلفة ومتحولة وغير منضبطة "[17].

وعليه : " فإن مقولة تساوي النصوص تخفي في العمق بُعدًا إيديولوجيا ناسفاً لكل ما هو مقدس ، ومُنزلاً إياه منزلةَ البشري. فهي بهذا النهج تَرى في القرآن الكريم كنص بشري متساو مع نصوص أخرى، يجري عليه ما يجري عليها، وليس كنصٍّ إلهي فوق بشري وفوق كل النصوص. كما أنها حين تُصِرُّ على موت المؤلف ولو إجرائياً تقول ضمناً بالإلحاد وبموت العقيدة، وهذا هو النبض الإيديولوجي الأخطر والأخفى فيها. ولذلك لابد من اليقظة والحذر حين التعامل مع مثل هذه النماذج التي نبتت في تربة غير تربة الثقافة العربية الإسلامية، فسمُّها أكثر من عسلها، وباطنها أَعْتَمُ من إشراق ظاهرها "[18].

من هنا يحق لنا أن نتساءل هل حضور النص القرآني في النص الشعري تناص أم اقتباس؟ . وبالرجوع إلى نقدنا العربي القديم نجد الاهتمام الواضح من قبل نقادنا القدامى بوضعهم الضوابط والمقاييس للشعر . إذن يمكننا القول بأن التناص الديني عموماً يقصد به تداخل نصوص دينية مختارة عن طريق الاقتباس أو التضمين من القرآن الكريم ، أو الحديث الشريف مع النص الأصلي للقصيدة

أوالمقطوعة ، بحيث تنسجم هذه النصوص مع السياق الشعري ، وتؤدي غرضاً فكرياً أو فنياً أو كليهما معاً .

فالاقتباس في اللغة : هو طلب القَبَس ، وهو الشعلة من النار ، ويستعار لطلب العلم ، قال الجوهري في " الصحاح " : اقتبست منه علما : أي استفدته.

وقد عرَّفه البلاغيون - في إطار التناص الديني - : بأن " يُضمَّن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث ، ولاينبه عليه للعلم به "[19]. وعلى هذا فلو أسند الكلام المقتبس إلى الله تعالى أو إلى الرسول – ﷺ- فلا يسمى اقتباساً.

والاقتباس – في رأينا - يدخل في دائرة التناص ، ويشكل رافداً مهماً من روافده ، ولو عدنا إلى دواوين الشعر العربي القديم لوجدناها مليئة بالمقبوسات القرآنية ، وتتنوع طرق الاقتباس عندهم من المفردة إلى العبارة ، وقد تحور بعض الجمل القرآنية تحويراً بسيطاً بحيث لا تخل بالمعنى الأصلي ، وهو مالم يعيبه النقاد القدامى . لكن في ظل بروز النظريات الغربية وتأثر النقد الأدبي العربي ، وظهور مصطلحات جديدة تتباين في فهمها وتحديد توجهاتها عند نقادنا العرب المحدثين ، يظل علينا ألا ننزلق في مزالق التبعية ، وتبهرنا الحداثة بزخرفتها ، فنسيء إلى قدسية القرآن ونزاهته وتعاليه ، لا سيما وأنه كلام الله عز وجل الذي لا يضاهيه أي كلام، كيفما كان قائله أو قيمته الدلالية والجمالية. وما أكثر الشعراء الذين وقعوا في مأزق الإساءة إلى ما هو قرآني، إما عن وعي منهم أو عن لا وعي ، " فكل نص شعري هو بالضرورة التاريخية ظهور جديد في عالم مليء بالنصوص الشعرية والنثرية، يتبادل معها الإحلال والإزاحة في جدليات فاعلة لنسج عباءة المستقبل. ولذلك لا يتم فهم أبعاده وتشابكاته وترميزاته إلا من خلال إدخاله في شبكة من النصوص أعم وأعقد، لأنها هي التي تكون جوهره، وتشي بحدوسه، وتفتح آفاقه غير المحدودة، وتدلل على ثرائه وغناه... ولذلك أطلق رولان بارث مقولة "موت المؤلف" ليِل محله "حياة القاريء"، الذي لا يملك حرية القراءة مع جثوم المؤلف فوق نصه. وهي مقولة مرتبطة عامة بالفلسفة الغربية النابذة للماورائيات، وبفكر بارث خاصة، وبفكرة ما بعد البنيوية. الهدف منها إبعاد القاريء عن المنظومات المنهجية الخارجية أثناء تأويل النص الأدبي، والردُّ على النزعة الرومانسية التي كانت تعلي من سلطة المؤلف ، والتاكيدُ على أنه ليس هناك نص أصلي ونصٌّ آخر تابع، فالنص الأصلي –كما تتصور- ليس أصليا، وإنما هو تابع لنصوص سابقة عليه (التناص)، ولذلك كان موت المؤلف. و أمام هذا التصور لا يسعنا إلا أن نجهر برفضه، لأنه يريدنا أن ندخل في جبته مُتجردين عن هويتنا وقيمنا الروحية، وعن ثقافتنا التي أسسها نصٌّ أصلي لا مثيل له هو القرآن الكريم الذي هو كلام الحي القيوم "[20].

أما التناص مع القرآن الكريم - في رأينا - فهو اقتباس الأديب نصاً قرآنياً، يذكره مباشرة، أو يكون ممتداً بإيحاءاته وظله على النص الأدبي، لنلمح جزءاً من قصة قرآنية، أو عبارة قرآنية يدخلها في سياق نصه ، مع المحافظة على المعاني القرآنية الأصلية، ويسعى من خلال ذلك إلى تفجير المعنى القرآني الأصلي وتوليد معان جديدة منه، دون نفي حقيقة المعنى الأصلي ، أوقلب الآيات والتلاعب بألفاظ

القرآن الكريم . وفي الوقت نفسه لانستطيع أن نحجز على البشر أن لايستخدموا مفردات استخدمها القرآن ، كما لانستطيع أن نمنع الناس من تدبر القرآن وفهمه والخروج بمعان جديدة مستنبطة من كلماته ومفرداته ولكن في حدود الأدب مع النص الكريم ، فالشعر شيء والقرآن شيء آخر ، والاقتباس ينبغي أن يكون بتمثل المثل التي يدعو إليها القرآن لتصير صفة متأصلة في النفس ، وليقتبس بعد ذلك ما شاء .

وهكذا يصبح الاقتباس رافداً من روافد التناص سواء أكان بالنقل أم بالفكرة ، غير أن الأخيرة تشيع كثيراًَ في مجال التناص . " ومن ثم ، فإن التناص كما يعرف الآن بمعناه الحديث ، يقوم على بناء شامخ يضرب بجذوره في التراث القديم ، فإذا كان الاقتباس نقلاً حرفياً لفقرة أو لنص بعينه ، فإن التناص يختلف عن ذلك اختلافاً بيناً ، غير أنه يتفق معه فيما يندرج تحته من أدوات ، بوصفه مفهوماً أعم وأشمل من الاقتباس "[21].

وابن زيدون نموذج من كبار الشعراء الأندلسيين الذين تناصوا مع القرآن الكريم والتزموا بآدابه ، وتمثلوا بقيمه ومثله العليا ، في حدود المباح ، لغرض توليد معاني جديدة يتطلبها السياق ، بعد تخليص النص الغائب من سياقه الأصلي ، ليصبح الاقتباس جزءاً أساسياً في البنية الحاضرة فـ" وعي الدرس العربي القديم بظواهر التناص كان على درجة عالية من الحذر والدقة ، ومن ثم تعددت ـ في هذا المجال ـ مجموعة من المصطلحات التناصية التي تحيط بالظاهرة جزئياً ، ويهمنا هنا مصطلح (الاقتباس) الذي يمثل شكلاً تناصياً يرتبط مدلوله اللغوي بعملية (الاستمداد) التي تتيح للمبدع أن يُحدث انزياحاً في أماكن محددة في خطابه الشعري ، بهدف إفساح المجال لشيء من القرآن ، أو الحديث النبوي ، وهنا يجب في الاعتبار (القصد النقلي) ، وما دام التناص في داخل دائرة (النصوص المقدسة) فإنه من الضروري تخليص النص الغائب من سياقه الأصلي ليصبح على نحو من الإيحاء جزءاً أساسياً من البنية الحاضرة "[22].

والناظر في ديوان ابن زيدون يلاحظ ظاهرة التناص القرآني بشكل لافت ، وهذا يدل على عمق ثقافة الشاعر وقدرته على توظيف خاصية الانزياح الدلالي للتناص ، بمعنى: قدرة الشاعر على الابتعاد بالنص القرآني عن دلالته الأصلية ، وخلق دلالات جديدة منبثقة منه ومرتبطة ، أو مستوحاة من روح الأصل ، منطلقاً بذلك لخلق أجواء دلالية جديدة.

وتتحدد آلية التناص القرآني في شعر ابن زيدون في أربعة اتجاهات :

الأول : اقتباسه بعض المفردات القرآنية ، فيتناص بكلمة واحدة أو أكثر ، أو جزء من آية اقتباساً حرفياً دون تغيير لغرض توليد معان جديدة يتطلبها السياق من خلال تفاعل النصوص المتناصة مع غيرها من النصوص الحاضرة ، للتعبير عن التجربة الشعورية ، وإثارة المتلقي ولفت انتباهه ، مع احتفاظ الأولى بدلالتها الأصلية من منطلق إيمان الشاعر وصدق عقيدته بقدسية هذه النصوص. وهذا اللون من التناص قليل الحضور في شعر ابن زيدون .

والثـاني : اقتباسـه بعـض المفـردات القرآنيـة أيضـاً ، مـع بعـض التحـويرات وتوظيفهـا فـي سياق المعنـى المطلـوب رغبـة أيضـاً فـي تثـوير المعنـى ، وتوليـد أبعـاد دلالية جديدة .

ومادمنا في إطار الاقتباس فـ يجوز للمقتبس أن يغير لفظ المقتبَس منـه بزيـادة أو نقصـان، أو تقـديم أو تـأخير، أو إبـدال الظـاهر مـن المضـمر، أو غيـر ذلـك، لضرورات فنية وبلاغية، دون حُوب أو تأثمٍ. ومن هنا يُتَبَيَّن قطع النظر فـي الاقتبـاس عـن كونـه نَفْسُ المُقتبَسِ منـه، إذ لـولا هـذا للـزم المقتبسين الكفرُ فـي لفظ القرآن إن لمسـوه بـنقصٍ أو زيـادة أو إبـدال أو تقديم أو تـأخير . وقـد ورد هـذا اللـون كثيـراً فـي تناص ابن زيدون .

والاتجاه الثالث: استلهام الشاعر لبعض معاني القرآن الكريم واستحضارها بآلية التناص ، فيكون النص القرآني ـ في مثل هذه الحال ـ ممتداً بإيحاءاته وظله على النص الأدبي ، لنلمح جزءاً من قصة قرآنية أوتشريع ديني ، أو غير ذلك مما يصب في بوتقة الاقتباس بالمعنى في التناص القرآني ، وهذا اللون ورد بكثرة.

أما الاتجاه الرابع : فقد يستحضر بعض الشخصيات الواردة في القرآن الكريم ويوظفها توظيفا فنياً ينسجم وتجاربه المتعددة من خلال آلية التناص[23].

فمما ورد في الجانب **الأول** قول ابن زيدون من قصيدة قالها في سجنه بقرطبة بعد أن أمضى خمسمائة يوم :

نارُ بَغْيٍ سَرَى إلى جَنَّةِ الأمْـ ـنِ لَظَّاها فأصبحتْ كالصَّرِيمِ[24]

حيث تناص مع آية قرآنية كاملة مقتبساً قوله تعالى من سورة القلم : ﴿فأصبحت كالصريم ﴾[25] ، مشبهاً حاله في سجنه بالليل المظلم ، أو الرماد الأسود ، مستخدماً تقنية التناص القرآني للتعبير عن دلالة الحزن والتحسر والأسى ، دون تغيير المعنى الأصلي ، وقد عمل التناص على توليد معاني جديدة من خلال إحداث المفارقة والجدلية ، وقد لعبت المقابلة بين المتضادين (الجنة) ، و(النار) دوراً كبيراً في إحداث الدهشة في المتلقي ولفت انتباهه ، حيث توحي الجنة بماضي الشاعر المشرق حين كان وزيراً وسيداً في ظل دولة بني جهور ، والنار التي توحى بحاضره المليء بالحزن والكآبة في سجنه نتيجة وشايات خصومه ومنافسيه.

من ذلك أيضاً قوله من قصيدة نونية غزلية في معشوقته ولادة :

أنتَ في القُرْبِ وفي البُعْـ ـدِ مِنَ النَّفْسِ مَكينُ[26]

فقد تناص الشاعر مع الآية الكريمة في قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[27]. فاقتبس كلمة (مكين) الدالة على ٱلتَمَكّن والنفاد للتعبير عن الاستسلام والرضوخ

للمعشوق ، فهو قريب بعيد في نفس الوقت ، فرغم هجران ولاَّدة له وبُعْدها عنه فلا زالت تمتلك قلبه وعواطفه ، فالتناص القرآني لم يفقد دلالته الأصلية المعبرة عن التمكن ونفاذ القول ؛ بل عمل تفجير المعنى بتفاعله مع النصوص الحاضرة وأعطى أبعاداً أخرى لفتت انتباه المتلقى ، وعبرت عن بؤرة النص ومغزاه .

ومن أمثلة الاتجاه **الثاني** قول ابن زيدون من قصيدة في ولادة بنت المستكفي:

فلا يَطِيبُ مَنامي ولا يَسُوغُ شَرَابِي

يا فِتْنَةَ المُتَقَرّي وَحُجَّةَ المُتَصَابي

الشّمسُ أنت تَوَارَتْ عن ناظِرِي بالحِجَاب[28]

فيلاحظ تناص الشاعر في البيت الأول مع القرآن الكريم في قوله تعالى من سورة النحل : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾[29] ، وتناص في البيت الثالث مع الآية الكريمة من سورة ص في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنِّيۤ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[30]، حيث اقتبس بعض المفردات القرآنية مع بعض التحوير في قوله : (يسوغ شرابي) ، وقوله : (توارت... بالحجاب) ، ووظفها توظيفاً يتلائم مع مغزى النص المعبر عن حبه ووفائه لولادة ، ويلاحظ انسجام هذه المفردات وتفاعلها مع غيرها من عناصر النص اللغوية والصوتية .

من ذلك أيضاً قوله من قصيدة في مدح ابن جهور :

وَجَاوَرْتَ بَيْتَ اللهِ أُنْسَاً بِمَعْشَرٍ خَشوهُ فَخَرّوا رُكّعاً وَأنَابُوا

لَقَدْ جَدَّ إخْباتٌ وَحَقَّ تَبَتّلٌ وَبَالَغَ إخْلاصٌ وصَحَّ مَتَابُ[31]

حيث استخدم تقنية التناص في الأبيات فاقتبس بعض المفردات القرآنية ووظفها لتتلائم مع سياق النص ، فجاء وقعها على السمع أشد وأقوى ، وقد تعدى التناص إلى أكثر من آية كما في االمثال السابق ، فتناص الشاعر في البيت الأول مع الآية القرآنية في قوله تعالى من سورة لقمان : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِيۤ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾[32]. وفي الشطر الأول من البيت الثاني تناص مع قوله تعالى من سورة الحج : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ ٱلأَنْعَامِ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُواْ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾[33] ، ومع قوله تعالى في سورة المُزّمّل: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾[34]. ثم زاد في الشطر الثاني تناص آخر مع قوله تعالى في سورة الرعد : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِيۤ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيۤ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لاۤ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[35]. فقد

استلهم معاني هذه الآيات الكريمة من خلال اقتباس بعض مفرداتها التي انسجمت مع سياق النص ومغزاه ، للدلالة على الإخلاص والطاعة للممدوح .

ومما ورد في الجانب **الثالث** قول ابن زيدون من قصيدة يخاطب فيها صديقه الوزير أبا حفص بن برد :

وبَنُو الأيَّـامِ أخْـيا فٌ : سَـرَاةٌ وَخِـسَاسُ

نَلْبَسُ الـدُّنْيَا وَلَكِـنْ مُتْـعَـةٌ ذَاكَ اللّـبَـاسُ[36]

فقد استوحى معاني الآيات الدالة على تشبث الإنسان بالدنيا وتهافته عليها مع أنها نعيم زائل ، على شاكلة قوله تعالى من سورة الحديد : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَٰوةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلأَمْوَٰلِ وَٱلأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَٰهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰماً وَفِي ٱلآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَٰوةُ ٱلدُّنْيَآ إِلاَّ مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[37] ، حيث يلاحظ تفاعل التناص القرآني مع باقي عناصر النص الشعر التي تظافرت صوتياً ودلالياً لشد انتباه المتلقي والتأثير فيه .

من هذا القبيل أيضاً قول الشاعر من قصيدة يرثي ابنة المعتضد بن عباد :

سَـرَّكَ الـدَّهْرُ وَسَـاء فَـاقْـنِ شُكْـراً وَعَزاءَ

كَـمْ أَفَـادَ الصَّبْرُ أجْراً واقْتَـضَـى الشّـكْـرُ نَمَاءَ[38]

حيث استلهم المعاني القرآنية الدالة على العلاج الفعال من سطوة الدهر وجبروته على بني البشر ، وما يجب أن يتحلى به المؤمن عند الشائد والمحن ، فكأنه استحضر قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[39] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[40] ، هذه المعاني القرآنية تفاعلت إلى حد كبير مع غيرها من عناصر النص من خلال استخدام الشاعر لتقنية التناص بغية إعطاء النص بعداً دلالياً دون أن يفقد المتناص معناه الأصلي .

وقد يعمد الشاعر إلى التناص القرآني من خلال الإشارة والتلميح إلى بعض القصص الواردة في القرآن الكريم ، وهو ما يمثله الجانب **الرابع** ، على نحو ما نجد في سينية ابن زيدون التي قالها في محنته السياسية ينتقد فيها منافسيه الذين أوقعوا به في غياهب السجن وفيها يقول :

أنا حَـيْرانُ ولـلأمـ ـر وضـوحٌ والْتِبـاسُ
ما ترى في معشرٍ حَا لوا عن العَهْدِ وخَاسـوا
وَرَأَوْنِـي سامِـرِيّاً يُتَّقَـىَ مِنْهُ المِـساسُ[41]

فقد اتكأ الشاعر – في تناصه الديني – على النص القرآني ليجسد رؤيته ويدعم موقفه من خصومه وأعدائه الذين أوقعوا به مع بني جهور حكام قرطبة ، حيث تناص خطابه الحاضر مع الخطاب القرآني الغائب من خلال الآية الكريمة في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾[42] ، حيث استلهم دلالته في خطابه الشعري من قصة موسى مع السامري الذي يمثل رمزاً لليهودي المضلل الكاذب الذي أغرى قومه بالانصراف عن عبادة الله والاتجاه إلى عبادة العجل ، وقد نجح الشاعر في توظيف هذه الدلالة التي تفاعلت مع نسيجه الشعري وتجربته الشعورية وأكسبت النص طابع النقد السياسي ، من خلال ما توحيه دلالة النص الشعري المتمثلة في الصراع الدائر في كواليس السياسة في بلاط قرطبة ، هذا الصراع المبني علي المكاسب الذاتية والمصالح المشتركة .

وقد يعمد ابن زيدون في تناصه القرآني إلى توظيف أسماء بعض الشخصيات التي ذكرت في القرآن الكريم في نسيجه الشعري لتعينه على البوح بتجربته الشعورية ، وتؤكد فكرته في التعبير عن رفضه لواقعه ،معتمداً بذلك على قدرة النص الشعري على الإيحاء بالمعاني الخفية التي تفتح فضاءات رحبة من التأويلات والتفسيرات يعمل القارئ على فك رموزها وحل شفراتها ، نجد ذلك في قول الشاعر من قصيدة قالها بعد فراره من سجنه متوارياً في قرطبة :

وَقَدْ وَسَمُوني بالَّتي لَستُ أَهْلَها وَلَـمْ يُمـنَ أَمْثالي بِأَمثَالِها قَطُّ

فَرَرْتُ فإنْ قالوا الفِرارُ إرَابَةٌ فَقد فَرَّ مُوسَى حينَ همَّ بهِ القِبْطُ[43]

حيث تناص الشاعر مع الآيات القرآنية الكريمة التي بيَّنت الشدائد والمحن التي يتحملها الأنبياء في سبيل ما يدعون إليه ، فاستحضر شخصية موسى عليه السلام وفراره من طغيان فرعون حين عزم على القضاء على موسى وقومه ، وذلك في قوله تعالى على لسان موسى : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[44] ، هذا التفاعل الدلالي عبر التناص القرآني يتوافق مع جو القصيدة المعبرعن حالة الضيق الشديد والمعاناة المريرة التي يعيشها الشاعر أيام محنته في السجن ، كما يحيلنا إلى دلالة التحلي بالصبر التي يتطلبها المرء في مثل هذه المواقف ، وقد شكَّلت هذه المتناصات زاداً روحياً يضفي شعوراً بالاطمئنان الممزوج بالأمل في العفو ، كما يحيلنا التناص أيضاً إلى دلالة أعمق وهي الشعور

بالظلم تؤكده لنا دلالة البيت الأول ، الأمر الذي يوحي بالتعبير عن النقد السياسي لأولئك الذين زجوا بالشاعر في غياهب السجون .

وشبيه ذلك قول ابن زيدون من قصيدة قالها فى سجنه يستشفع فيها ابن جهور :

بِأبي أنْتَ إنْ تَشَأ تَكُ بَـرْداً وسَلاماً كَـنَارِ إبْراهِيمِ[45]

فاستحضر ـ على المستوى الدلالي ـ قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وما تعرض له من محنة شديدة حين أرادوا قومه حرقه والانتقام منه والخلاص من دعوته ، لكن الله نجاه من كيدهم بمعجزة كبرى حين أمر النار أن تكون برداً وسلاماً عليه ، متناصاً مع الآية الكريمة التي تشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يٰنَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَٰماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾[46] . توظيفاً لسياق النص المعبر عن الأمل والرجاء بالعفو ، وقد عمل تفاعل النص القرآني مع غيره من عناصر النص الحاضرة على خلق أجواء توحي بهاجس الخوف والقلق من مصير مجهول .

وهكذا يمضي التناص القرآني عند ابن زيدون بين هذه الاتجاهات الأربعة ، وسنعرض بإيجاز ما ورد في ديوانه من تناص قرآني على النحو التالي:

النص الشعري :

فَدَيْتُكَ ما للماءِ عذْباً على الصّدى وَإنْ سُمْتَني خَسفاً مَحَلُّكَ من قَلبي[47]

وقوله :

أيَجْمُلُ أنْ أُبِيحَكَ مَحضَ وُدّي وَأنْتَ تَسُومُني سُوءَ العَذابِ[48]

تناص مع قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[49] .

النص الشعري :

وَلْتَقْضِ ما شِئْتَ مِنْ هَجْرٍ وَمن صِلةٍ لا أقضِ ما عِشْتُ سُلواناً ولامَللا[50]

تناص مع قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾[51].

النص الشعري :

لا يحْبَطَنْ عَمَلٌ أرْضَاكَ صَالحُه فَفي سَبيلِكَ أنْفَقْتُ الهوَى سَرفَا[52]

تناص مع قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾[53].

النص الشعري :

وإِذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الوَصْلِ دانِيةً قِطـافُها فَجَنـيْنَا مِنْهُ مَا شِينَا[54]

وقوله :

أتَدْنُو قُطُوفُ الجَنَّتَينِ لِمَعْشَرٍ وَغايَتيَ السِّدْرُ القَليلُ أو الخِمْطُ[55]

فالتناص مع قوله تعالى: ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾[56]. وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[57].

النص الشعري :

ياجَنَّةَ الخُلْدِ أُبدِلْنَا بِسدْرَتِهَا والكوْثَرِ العَذْبِ زَقْومَاً وغِسْلينا[58]

تناص مع قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيراً ﴾[59]. ومع قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾[60] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلأَثِيمِ ﴾[61] .وقوله تعالى أيضاً : ﴿وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾[62].

النص الشعري :

إنْ كَانْ قَدْ عزَّ في الدُّنيا اللِّقاءِ ففي مَواْقفِ الحَشْرِ نَلقاكُمْ ويكفينا[63]

تناص مع قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾[64].

النص الشعري :

جَحِيمٌ لِعَاصِيهِ يُشبُّ وَقُودُهُ وَجَنَّةُ عَدْنٍ لِلْمُطِيعينَ تُزْلَفُ[65]

تناص مع قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾[66] . ومع قوله تعالى : ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾[67].

النص الشعري :

لَقَدْ جُدتَ حتَّى ما بنَفسٍ خَصَاصَةٌ وَأمَّنْتَ حَتى ما بِقَلْبٍ تَخَوُّفُ[68]

تناص مع قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدَّارَ وَٱلإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[69].

النص الشعري :

وَبَـوَّأتَهُ دُنْيَاكَ دارَ مُقَـامَةٍ بِحَيْثُ دَنَا ظِلٌّ وَذُلِّلَ مَقْطَفُ[70]

وقوله :

مُتَبَوّئونَ جَنـَابَ عَـيْشٍ مُونِقٍ مُتَفَيّئُونَ ظِلالَ أمْنٍ شَائعِ[71]

تناص مع قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[72]. ومع قوله تعالى : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾[73] .

النص الشعري :

فـَأرى الفـُتُوَّةَ غَضـّـَةً فـي ثـَوْبِ أوَّاهٍ حَـليمْ[74]

تناص مع قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[75].

النص الشعري :

إِذْ خِتَامُ الرَّضَا المُسَوَّغِ مِسْكٌ ومِزَاجُ الوِصَالِ مِنْ تَسْنِيمِ[76]

تناص مع قوله تعالى : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾[77].

النص الشعري :

كان الوُشَاةُ وَقد مُنيتُ بِإفْكِهِمْ أسْبَاطَ يَعْقُوبٍ وَكنتُ الذِّيبَا

وَإذا المُنى بقَبُولِكَ الغَضّ الجنى هُزَّتْ ذَوَائِبُها فَلا تَثْرِيبَا[78]

تناص مع قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يَٰأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[79].

وقوله تعالي : ﴿ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴾[80] .

النص الشعري :

وَجَـاهَدَ في الله حَـقَّ الجِـهَا دِ مَنْ دَانَ مِنْ دونِهِ بالصَّنمْ[81]

تناص مع قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلاَةَ وَآتُواْ ٱلزَّكَـاةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[82].

النص الشعري :

ليسَ الرّكونُ إلى الدُّنيا دَليلَ حِجاً فإنَّهَا دُوَلٌ أيّامُهَا مُتَعُ[83]

تناص مع قوله تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ ﴾[84].

النص الشعري :

يُطِيلُ العِدا فيّ التّناجيَ خُفْيَةً يقولون:لاتَسْتَفتِ قد قُضِىَ الأمْرُ[85]

تناص مع قوله تعالى: ﴿ يٰصَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا ٱلآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾[86] .

النص الشعري :

مَضَى نَفثُهُم في عُقْدةِ السّعيِ ضَلّةً فَعَادَ عَلَيهِمْ غُمَّةً ذَلِكَ السّحرُ[87]

تناص مع قوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّاثَاتِ فِي ٱلْعُقَدِ ﴾[88].

النص الشعري :

هِيَ الرِّجسُ إنْ يُذهِبهُ عنه فمُحسنٌ شَهِيرُ الأيادي ما لآلائِهِ جَحْدُ[89]

تناص مع قوله تعالى : ﴿ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلأَنصَابُ وَٱلأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[90].

النص الشعري :

وَها هُوَ مُنقادٌ لحُكْمِكَ فاحْتَكِمْ لِتَبلُغَ ما تَهوَى وَمُرْهُ ليَصْدَعَا[91]

تناص مع قوله تعالى : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[92].

النص الشعري :

خَفَضْتَ جَنَاحَ الذُّلّ في العِزّ رَحمةً لها وَعَزِيز أنْ تَذِلّ وَتَخْضَعَا[93]

تناص مع قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾[94].

النص الشعري :

وَ نَبَذْتُمُ التّقْوَى وَرَاء ظُهُورِكُمْ فَغدا نَقِيضَكُمُ التّقيُّ الأكْرَمُ[95]

تناص مع قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[96].

النص الشعري :

فَلْيَخْرِقَنَّ الأرْضَ شُكْرٌ مُنْجِدٌ منّي تَنَاقَلُهُ المَحافِلُ مُتْهِمُ[97]

تناص مع قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي ٱلأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً ﴾[98].

النص الشعري :

وَلَمْ يَعُدْ إلا كمَا يَتَّـقي مُسترِقُ السّمعِ من الكَوْكَبِ[99]

تناص مع قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾[100]

النص الشعري :

لَيْسَ مِنْكِ الهوَى وَلا أنْتِ مِنْهُ اهبِطي مِصرَ أنتِ مِنْ قَوْمِ مُوسى[101]

تناص مع قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾[102].

هذا ما حاولنا تتبعه من التناص القرآني في شعر ابن زيدون ، وهو جزء من جوانب تناصية أخرى تاريخية وأسطورية يحفل بها ديوانه ، وهذا الكم يدل على إجادة الشاعر في استخدام هذ التقنية النصية في قصائده ، وهذا يدل على أن الشعراء القدامى ، وبخاصة شعراء الأندلس ، قد انفتحوا على النص القرآني ، فهو متغلغل في نسيج لغتهم اليومية ، مستمدين منه الزاد الروحي ، فاستلهموه أثناء نظم أشعارهم وقصائدهم ، وغالباً ما اتخذ عندهم هذا الاستلهام منحيين ، أولهما يستوحي معاني القرآن الكريم ، وثانيهما يستفيد من أساليب القرآن الكريم. وهو ما ينطبق على أغلب النصوص التي أوردناها ، التي تحاول تثوير المعاني القرآنية الأصلية وتفجيرها، رغبة في توليد أبعاد دلالية جديدة . وما يميز النماذج التي أوردناها في شعر ابن زيدون أنها وفية ، بشكل أو بآخر، للمعنى القرآني الأصلي ، أو لجانب منه ، فقد استفادت كثيراً مما هو قرآني ، وأن تميزها إنما تستمده من تناصها اللافت مع المعاني القرآنية السامية ، مما يرقى بها إلى سلم الرؤيا، التي قلما يبلغ شأوه الشعراء ، فبالإضافة إلى حفاظها ، من جهة أولى ، على المعاني القرآنية الأصلية ، فإنها سعت من جهة ثانية ، إلى تفجير المعنى القرآني الأصلي وتوليد معان جديدة منه ، مع ارتباط الأمر بقدرة المتلقي على الكشف عن هذه الدلالات ، استيعابها وفهمها والتفاعل معها ، وهو ما يتوافق مع أدبنا العربي الذي نسعى إلى أن تكون له خصوصيته في ضوء مفاهيم النقد الحديثة.

الحواشي :

(1) أحمد طعمة حلبي : التناص بين النظرية والتطبيق ، شعر البياتي نموذجاً ص14.
(2) المرجع السابق ص14.
(3) السابق ص19.
(4) فاطمة قنديل : التناص في شعر السبعينات ، دراسة تمثيلية ، ص29.
(5) عزة شبل محمد : علم لغة النص النظرية والتطبيق ، ص74.
(6) الهام أبو غزالة ، على خليل أحمد : مدخل إلى علم لغة النص ، تطبيقات لنظرية روبرت ديبوجراد وولفاند ديسلر ، ص12 ، 35.
(7) محمد عزام : النص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي) ، ص26.
(8) المرجع السابق ص53.

(9) ينظر منها : ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر ونقده.
(10) أبـو الحسـن حـازم القرطـاجني : منهـاج البلغـاء وسـراج الأدبـاء ، تقـديم وتحقيق محمد حبيب الخوجة ، ص97.
(11) المصدر السابق ص193.
(12) محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ، ص53.
(13) ينظر ابن رشيق : العمدة ، ج 2 / 702.
(14) أحمـد طعمـة حلبـي : التنـاص بـين النظريـة والتطبيـق ، ص62 ، 63. وينظر أيضاً أحمد مجاهد : أشكال التنـاص الشعري ، دراسـة فـي توظيف الشخصـيات التراثيـة ، الهيئـة المصـرية العامـة للكتـاب ، 1998م ، وقـد تحدث عن آاليات استدعاء الشخصيات التراثية وتوظيفها داخل القصيدة الشعرية ، وجعلها في مراتب : الاستدعاء المباشر ، والاستدعاء بالدور ، والاستدعاء بالقول ، ينظر الكتاب ص 15- 153.
(15) عزة شبل محمد : علم لغة النص النظرية والتطبيق ، ص79 ، 80 .
(16) السابق 80 .
(17) أحمد بلحاج : حضور النص القرآني في الشعر أهو تناص أم اقتباس؟ موقع أواب ، الرابط : www.awab belhaj.jeeran.com
(18) المرجع السابق.
(19) الحلبي ، شهاب الدين محمود : حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، تحقيق : أكرم عثمان يوسف ، ص80.
(20) أحمد بلحاج : حضور النص القرآني في الشعر أهو تناص أم اقتباس؟ موقع أواب ، الرابط : www.awab belhaj.jeeran.com
(21) عبد العاطي كيوان : التناص القرآني في شعر أمل دنقل ، ص40.
(22) المرجع السابق 39 ، نقلاً عن محمد عبد المطلب : دراسات أسلوبية في الشعر الحديث ، ص163.
(23) ويدخل في هذا الاتجاه مع مارآه د. أحمد مجاهد في كتابه : أشكال التناص الشعري ، ينظر ص 87- 153.
(24) ديوان ابن زيدون ورسائله ص 361، شرح وتحقيق علي عبد العظيم ، تقديم ومراجعة محمد إحسان النص ، الطبعة الثالثة ، منشورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، الكويت 2004م .
(25) سورة القلم الآية 20.
(26) ديوانه ص 211.
(27) سورة يوسف الآية 54.
(28) ديوانه ص 177.
(29) سورة النحل الآية 66.
(30) سورة ص الآية 32.
(31) ديوانه ص 447.
(32) سورة ص الآية 24.

(33) سورة الحج الآية 34.
(34) سورة المزمل الآية 8.
(35) سورة الرعد الآية 30.
(36) ديوانه ص 355.
(37) سورة الحديد الآية 20.
(38) ديوانه ص 579.
(39) سورة الزمر الآية 10 .
(40) سورة آل عمران الآية 145.
(41) ديوانه ص 356 .
(42) سورة طه الآية 95.
(43) ديوانه ص 369.
(44) سورة الشعراء الآية 21.
(45) ديوانه ص 362.
(46) الأنبياء الآية 69.
(47) ديوانه ص 235.
(48) ديوانه ص 229.
(49) سورة البقرة الآية 49.
(50) ديوانه ص 228.
(51) سورة طه الآية 72.
(52) ديوانه ص 236.
(53) سورة الزمر الآية 65.
(54) ديوانه ص 169.
(55) ديوانه ص 367.
(56) سورة الحاقة الآية 23.
(57) سورة سبأ الآية 16.
(58) ديوانه ص 171.
(59) سورة الفرقان الآية 15.
(60) سورة الكوثر الآية 1.
(61) سورة الدخان الآية 43 ، 44.
(62) سورة الحاقة الآية 36.
(63) ديوانه ص 172.
(64) سورة ق الآية 44.
(65) ديوانه ص 532.
(66) سورة التكوير الآية 12.
(67) سورة ق الآية 31.
(68) ديوانه ص 537.
(69) سورة الحشر الآية 9.

(70) ديوانه 538.
(71) ديوانه ص 466.
(72) سورة فاطر الآية 35.
(73) سورة الإنسان الآية 14.
(74) ديوانه ص 269.
(75) سورة التوبة الآية 114.
(76) ديوانه ص 358.
(77) سورة المطففين الاية 26 ، 27.
(78) ديوانه ص 405 ، 406.
(79) سورة يوسف الآية 17 .
(80) سورة يوسف الآية 92.
(81) ديوانه ص 474.
(82) سورة الحج الآية 78.
(83) ديوانه ص 375.
(84) سورة آل عمران الآية 140.
(85) ديوانه ص 596.
(86) سورة يوسف الآية 41.
(87) ديوانه ص 597.
(88) سورة الفلق الآية 4.
(89) ديوانه ص 434.
(90) سورة المائدة الآية 90.
(91) ديوانه ص 585.
(92) سورة الحجر الآية 94.
(93) ديوانه ص 585.
(94) سورة الإسراء الآية 24.
(95) ديوانه ص 392. وقد وقع المحقق في خطأ حين أدرج هذه القصيدة في فهرس قوافي الشعراء الذين وردت لهم قصائد في ديوان ابن زيدون ، ونسبها للمعتمد بن عباد وهي في الحقيقة لابن زيدون ، ينظر الفهرس ص 769.
(96) سورة الأنعام الآية 94.
(97) ديوانه ص 397.
(98) سورة الإسراء الآية 37.
(99) ديوانه ص 265.
(100)سورة الحجر الآية 18.
(101) ديوانه ص 261.
(102)سورة البقرة الآية 61.

المصادر والمراجع :

أولاً : **المصحف الشريف برواية حفص عن عاصم .**

ثانياً : **الكتب :**

1- أبو الحسن حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق محمد حبيب الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ، 1986.

2- أحمد بلحاج : حضور النص القرآني في الشعر أهو تناص أم اقتباس؟ ، موقع أواب ، الرابط : www.awab belhaj.jeeran.com

3- أحمد طعمة حلبي : التناص بين النظرية والتطبيق ، شعر البياتي نموذجاً ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة دمشق ، 2007 .

4- أحمد مجاهد : أشكال التناص الشعري ، دراسة في توظيف الشخصيات التراثية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1998م .

5- ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر ونقده ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت.

6- الحلبي ، شهاب الدين محمود : حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، تحقيق : أكرم عثمان يوسف ، وزارة الثقافة والإعلام بغداد ، الطبعة الأولى ، 1980.

7- الهام أبو غزالة ، على خليل أحمد : مدخل إلى علم لغة النص ، تطبيقات لنظرية روبرت ديبوجراد وولفاند ديسلر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، 1999.

8- 7- ديوان ابن زيدون ورسائله ، شرح وتحقيق علي عبد العظيم ، تقديم ومراجعة محمد إحسان النص ، الطبعة الثالثة ، منشورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، الكويت 2004م .

.

8- عبد العاطي كيوان : التناص القرآني في شعر أمل دنقل ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، الطبعة الأولى 1998.

9- عزة شبل محمد : علم لغة النص النظرية والتطبيق ، مكتبة الآداب ، ميدان الأوبرا القاهرة ، الطبعة الثانية 2009.

10- فاطمة قنديل : التناص في شعر السبعينات ، دراسة تمثيلية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، مارس 1999.

11- محمد عزام : النص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي) ، منشورات اتحاد الكتاب العربي ، دمشق 2001.
11- محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) بيروت ، الطبعة الأولى ، دار العودة 1957.